# ٨ـ القلب المسكين

## للأستاذ مصطفى صادق الرافعى

وأما هو فحدّثنى بهذا الحديث العجيب من لطائف إلهامه وفنّه قال : انصرفت إلى دارى وقد عزّ علىّ أن يكون هـذا منها وأن يكون هذا منى ، وهى إن غابت أو حضرت فأنها لى كالشمس للدنيا ، لا تظلم الدنيا فى ناحيةٍ إلا من أنها تضىء فى ناحية ، فظلمتها من عمل نورها . وكانت لياتى فارغة من النوم فبتُّ أتململُ ، وجعل القلب يدقّ فى جنبىّ كأنه آلة فى ساعة لا قلب إنسان ؛ وكان فى الدنيا من حولى صمت كصمت الذى سكت بعد خطبة طويلة ، وفىّ أنا صمت آخر كصمت الذى سكت بعد سؤال لا جواب عليه ؛ وكان الهواء راكداً كالسكران الذى انطرح من ثقلة السكر بعد أن هذى طويلاً وعربد ؛ والوجودُ كلُّه يبدو كالمختنق لأن معنى الاختناق فى قلبى وأفكارى . ونظرت نظرةً فى النجوم فاذا هى تتغوّرُ نجماً بعد نجم كأن معنى الرحيل انتشر فى الأرض والسماء إذ رحلت الحبيبة ، وكأن كل وجهٍ مضىءٍ يقول لى كلمة : لا تنتظر

فلما عسعسَ الليلُ رميت بنفسى فنمت والعقل يقظان ، وصنعت الأحلامُ ما تصنع ، فرأيتها هى فى تلك الشُّقوف التى ظهرت فيها عروساً ؛ وما أعجب كبرياءَ المرأة المحبوبة ! إنها لتبدو لعينى محبها كالعارية وراء ستر رقيق يشف عنها كالضوء ، ثم تدلّ بنفسها أن ترفعَ هذا الستر ؛ فأن لم يتجرأ هو لم تتجرأ هى ؛ وكأنها تقول له : قد رفعتُه بطريقتى فارفعـه أنت بطريقتك . . .

وكانت مصوَّرة فى الحلم تصويراً آخر فلا ينسكب من جسمها معنى الحسن الذى أتأمله وأعقله ، ولكن معنى السكر الذى يترك المرء بلا عقل ؛ ولم تكن غلائلها عليها كالثياب على المرأة ، ولكنها ظهرت لى كاللون على الوردة الزاهيـة ؛ تُظهر فتنةً وتُتم فتنة

أيتها الأحـلام ماذا تُبدعين إلا مخلوقات الدم الانسانى ، ماذا تبدعين ؟

قلت : ياصديقى دع الآن هذه الفلسفة وخـذ فى قصّ ما رأيت . ثم ماذا بعد الوردة ولون الوردة ؟

قال : إنه القلبُ المسكينُ دائماً ، إنه القلب المسكين . لقد ضحكت لى وقالت : هأنذى قد جئت ، وأقبلتْ تراثينى بوجهها ، وتتغزل بعينيها ، وتتنهد بصـدرها ، وألقت يدها فى يدى فأحسست اليدين تتعانقان ولا تتصافحان ؛ ثم تركناها نائمتين إحداهما على الأخرى ، وسكتنا هُنيهةً وقد خيِّل الينا أننا إذا تكلمنا استيقظت يدانا

أما صافحتك امرأة تحبها وتحبك ؟ أما أحسست بيدها قد نامت فى يدك ولو لحظة ؟ أما رأيت بعينيك نعاس يدها وهو ينتقـل إلى عينيها فاذا هما فاترتان ذابلتان ، وتحت أجفانهما حلمٌ قصير ؟

قلت : ياصديقى دع الفلسفة ؛ ثم كان ماذا بعـد أن نامت يدٌ على يد ؟

قال : ثم كانت سخرية من الشيطان أقبح سخرية قط

قلت : حسبى لكأنك شرحت لى ما بقى . . .

فضحك طويلاً وقال : إن الشيطان يسخر الآن منك أيضاً ، وكأنى به يقول لك : وكان ما كان مما لست أذكره ... أفتدرى ما الذى كان وما بقية الخبر ؟

لقد كنتُ مولعاً بامتحان قوتى فى الضغط بيدى على أعواد منصـوبةٍ من الحديد ، أو على أيدى الرجال الأقوياء إذا سلمتُ عليهم ؛ فلما صافحتنى لبثت مدة من الزمن ثم شددتُ على يدها قليلاً قليلاً ، فتنبهتْ فىّ هذه العادة ، فسخت الحلمَ وانصرف وهمى إلى أقبح صورةٍ وأشنعها وأبعدها ممـا أنا فيه من الحب ولذات الحب ؛ فاذا بأزائى وجه ؛ وجهُ من ؟ وجهُ مصارع ألمانى كنتَ أعرفه من عشرين سنة وأضغط على يده . . .

* * *

قلت : إنما هذه كبرياؤك أو عفتك تنبهتْ فى تلك الشِّدة من يدك ، ولا زال أمرك عجيباً ؛ فهل معك أنت ملائكة ومع الناس شياطين ؟

قال : والذى هو أعجب أنى رأيت فى أضعاف أحلامى كأن قلبى المسكين يخاصمنى وأخاصمه ؛ وقد خرج من أحناء الضلوع كأنه مخلوق من الظل يُرى ولا يُرى إذ لا شكل له ؛ وسبَّنى وسببتُه ، وقلت له وقال لى ، وتقالظْنا كأننا عدوان ؛ فهو

يرى أنى أنا أمنعه لذته ، وأرى أنه هو يمنعنى ، وأنه أشفى بى على ما أشْفى ؛ وقلت له فيما قلت : لا قرارَ على جنايتك فاذهبْ عنى ولا تتسمَّ باسمى فانه لا فُلانَ لك[1] بعد اليوم ؛ ولولا أنك مخذول فى الحب لعلمتَ أن لمسةَ يد الرجل ليد المرأة الجميلة نوعٌ مخفَّف من التقبيل ، فاذا هى تركته يرتفع فى الدم انتهى يوماً إلى تقبيل فمه لفمها ؛ ولولا أنك مخذول فى الحب لعلمت أن هذا الضم بين اليدين نوع خفف من العناق ، فاذا هى تركته يشتد فى الدم انتهى يوما إلى ضم الصدر للصدر ؛ ولكنك مخذول فى الحب ، ولكنك مخذول .

وقال لى فيما قال : وأنت أيها الخائب ؟ أما علمتَ أن أناملها الرَّخْصةَ هى أناملُها ، لا أعوادُك من الحديد ؟ فكيف شددت عليها ويحك تلك الشَّدة التى أخرجت لك وجهَ المصارع ؟ ولكنك خائب فى الحب ، ولكنك خائب .

قلت : فهذه قضيةٌ بينى وبينك أيها القلبُ العدوّ ؛ لقد تركتنى من الهموم كالشجرة المُنْخَرِبة قد بليَتْ وصارت فيها التخاريب فلا حياتُها بالحياة ولا موتُها بالموت ، وكم علَّقتنى بفاتنة بعد فاتنة لا عنها إقصارٌ ينتهى ولا فيها مطمعٌ يبتدىء ؛ ما أنت فىَّ إلا وحشٌ أكبرُ لذته لطْعُ الدم .

* * *

واستدار الحلم فلم ألبث أن رأيتنى فى محكمة الجنايات ، وكأنى شكوت قلبى إليها فهو جالس فى القفص الحديدىّ بين المجرمين ينتظر ما ينتظرون من الفصل فى أمرهم ؛ وقد ارتفع المستشارون الثلاثة إلى منصة الحكم وجلس النائب العامُّ فى مجلسه يتولى إقامةَ الدعوى وبين يديه أوراقه ينظر فيها ، ورأيت منها غلافا كتب على ظاهره : قضية القلب المسكين .

وتكلم رئيس المحكمة أولَ من تكلم فقال : ليس فى قضية القلب محامٍ ، فابْغُوه من يدافع عنه ؛ ثم التفت إليه وقال : من عسى تختار للدفاع عنك ؟

قال القلب : أوَهنا موضع للاختيار يا حضرة الرئيس ؟ إنه ليس تحت هذه — وأوماً إلى السماء — ولا فوق هذه — وأوماً إلى الأرض — إلا . .

فبَدَر النائب العام وقال : إلا الحبيبة . أكذلك ؟ غير أنها أستاذة فى الرقص لا فى القانون

— القلب : ولكننى لا أختار غيرها محكوما لى أو محكوماً على . أما أريد أن أنظر فيها وانظروا أنتم فى القضية . . . .

— الرئيس : فليكن ؛ فهذه جريمة عواطف إذَنْ لها أيها الآذِن

فنادى المحْضِر[1] : الأستاذة . الأستاذة

وجاءت مُبادِرة ، ودخلت تمشى مشيتَها وقد افترَّ ثغرها عن النور الذى يسطع فى النفس ؛ وأومَضَتْ بوجهها يميناً وشمالاً فصرفَ الناسُ جميعاً أبصارهم إليها وقد نظروا إلى فتنة من الفتن ؛ وثارت فى كل قلب نزعة ، وغلبت الحقيقةُ البشرية فانتقضت طباع الموجودين فى قاعة الجلسة ، وأبطل قانون جمالها قانونَ المحكمة ، فوقعت الضجة وعلت الأصواتُ واختلطت ؛ وتردَّدت بين جدران المكان صَدى فى صَدًى كأن الجدران تتكلم مع المتكلمين

أصوات أصوات : سبحان الله ! سبحان الله ! تبارك الله ، تبارك الله ، آه آه آه ! آه آه ؛ وسمع صوت يقول : اتَّهموني أنا أيضاً ... فتَنَفَّرَت الكلمات وأنا وأنا وأنا . واختفت المحكمة وانبعث المسرح بدخول فاتنته الراقصة ؛ وكان المستشارون والنائب العام فى أعين الناس كأنهم صور معلقة على الحائط لا يخشاها أحدٌ أن تنظر إلى ما يصنع

فصاح الرئيس : هنا المحكمة ! هنا المحكمة ! سبحان الله ... المحكمة المحكمة

— النائب العام : هذا بَدْءٌ لا ترضاه النيابة ولا تقبل أن تنسحب عليه . نعم إن هذا الوجه الجميل أبرعُ محام فى هذه القضية ، ونعم إن جسمها . . . آه ماذا ؟ إنكم تأتون بالشهوة الغالبة القاهرة لتدافع عن المشتهى ... عن المتَّهم . هذا وضع كوضع العذر إلى جانب الذنب . وكأنكم يا حضرات المستشارين . .

فبدَرت المحامية تقول فى نغمة دلال وفتور : وكأنكم يا حضرات المستشارين قد نسيتم أن النائب العام له قلب أيضاً ...

واشتدَّ ذلك على النائب وتبين الغضب فى وجهه ، فقال : يا حضرة الرئيس

(١) ذكر اسمه كما تقول مثلا لا محمد لك

(١) هو الموظف الذى يكون فى الجلسة للنداء على الخصوم

— الرئيس مبتسما : واحدة بواحدة ، وأرجو ألا تكون لها ثانية ، ومعنى هذا كما هو ظاهر ألا تكون لها ثالثة . . . . (ضحك)

* * *

قال صاحب القلب المسكين : وكنت بلا قلب ... فلم التفت للجمال ، بل راعنى ذكاءُ المحامية ونفاذُها وحسن اهتدائها إلى الحجة فى أول ضرباتها ، وتعجبت من ذلك أشد التعجب ، وأيقنت أن النائب العام سيقع فى لسانها لا كما يقع مثله فى لسان المحامى القدير ، ولكن كما يقع زوجٌ فى لسان زوجة معشوقة متدللة تجادله بحجج كثيرة بعضها الكلام ... وقلت فى نفسى : يا رحمة الله لا تجعلى من النساء الجميلات الفاتنات محاميات فى هذه المحاكم ، فلو ألبسوهن لِحًى مستعارة لكان الصوت الرخيم وحده من تلك الأفواه الجميلة العذبة نداء قانونياً للقبلات . . .

ونهضت المحامية العجيبة فسلطت عينيها الساحرتين على النائب ، ثم قالت تخاطب المحكمة : قبل النظر فى هذه القضية قضية الحب والجمال ، قضية قلبى المسكين ... أريد أن أتعرف الرأى القانونى فى اعتبار الجريمة . أهى شخصية ، فتُقصر على صاحبها ؟ أو خاصة فتضر غير جانبها ؟ أو عامة فيتناولها العموم المحدود لمن تجمعهم جامعة الحب ؟ أو هى أعم ، فيتناولها العموم المطلق للهيئة الاجتماعية ؟ ما هى جريمة قلبى ..؟

— الرئيس : ما رأى النيابة ؟

النائب ضاحكا : ( غزالتها رايقة ) كما يقول الراقصات والممثلات . . . . أرى أنها جريمة آتية من ضرب الخاص فى العام .. (ضحك)

المحامية : جواب كجواب القائل : حب أبى بكر . كان ذلك الرجل يحب زوجته الجميلة ويخافها ، وكانت تقسو عليه قسوة عظيمة وتُغلظ له الكلام وهو يفرق منها ولا يخالفها . فرآها يوما وقد طابت نفسها فأراد أن ينتهز الفرصة ويشكو قسوتها ؛ فقال : يافلانة قد والله أحرق قلبى .. ولم تدعه يتم الكلمة ، فحدقت نظرها اليه وتطلعت وجهها وقال : أحرق قلبك ماذا ؟ فخاف ولم يقدر أن يقول لها سوء أخلاقك . فقال : حب أبى بكر الصديق رضى الله عنه .. ( ضحك ) ورنت ضحكة المحامية فاضطربت لها القلوب ، ووقعت فى كل دم ، وفى دم النائب أيضاً ؛ فانخزل ولم يزد على أن يقول : أحتجُّ من كل قلبى . .

الرئيس : لندخل فى الموضوع ، ولتكن المرافعة مطلقة فان الحدود فى جرائم القلب تُسدل وتُرفع كهذه الستائر فى مسرح التمثيل . وعشرون ستارة قد تكون كلها لرواية واحدة

* * *

— النائب العام : يا حضرات المستشارين ، لا يطول اتهامى فان هذا القلب هو نفسه تهمة متكلمة

المحامية : ولكنه قلب

النائب : وأنا يا سيدتى لم أحرف الكلمة ولم أقل إنه كلب . (ضحك) وتفرج وجه المحامية وخجلت[1]

— الرئيس : الموضوع الموضوع

النائب : يا حضرات المستشارين . إن ألم هذه الجريمة إما أن يكون فى شخص الجانى أو ماله ، أو صفته كأن يكون زوجا مثلاً ، أو صيته الأدبى . فأما الشخص فهذا ظاهر ، وأما المال فنعم إن القلب المسكين قرر لنفسه ولصاحبه ألا يبتاع أبداً تذكرة دخول إلى جهنم ... ( ضحك )

— المحامية : أستميح النائب عذراً إذا أنا . . . إذاً أنا فهمت من هذا التعبير أن حضرته يعرف على الأقل أين تباع هذه « التذاكر » ... (ضحك) وتفرج وجه النائب العام وخجل .

— الرئيس : كنت رجوت ألا تكون للأولى ثانية ، وقلت : إن معنى هذا كما هو ظاهر ألا يكون لها ثالثة ؛ فهل أنا محتاج إلى القول بأن المعنى المنطقىَّ ألا يكون للثالثة رابعة ... ؟

— النائب : يا حضرات المستشارين . وأما الصفة ، فهذا القلب المسكين قلب رجل متزوج ؛ ولا تغرنَّكم صوفية هذا القلب ، ولا يخدعنكم تألهه وزعمُه السموَّ . إنه على كل حال يعشق راقصة ، وهذا اعتداء فى ضمنه اعتداء ؛ على الزواج وعلى الشرف . وهبوه متصوفاً متألها ولم يتصل بالراقصة ، فهو على كل حال قد أخذها واتخذها ولكن بأسلوبه الخاص . . . وبهذا اقترف الجريمة . آه . ان هذه القضية ناقصة ؛ وذلك نقص فيها

(١) إذا كان كلباً فهو يتبع كلبة ... وهذه هى غمزة النائب للمحامية ، ولا ينسى القراء أن المحكمة فى الرؤيا ؛ وفى الرؤيا علمنا أن هذا النائب كان كثر شبان العصر فى حمأة المدنية الفاسدة ، لا يتزوجون لأن المدنية جعلتهم بين الفتيان « أنصاف متزوجين » على وزن « أنصاف عذارى » بين الفتيات ... وفى الرؤيا علمنا أنه يخادن راقصة ويقال ممثلة — بينها وبين صاحبة القلب المسكين منافسة ...

أخشى أن يكون نقصا فى الحكم أيضاً ، فأتموه أنتم . يا حضرات المستشارين إن النقص فيها أنها لا شهود فيها ؛ ولكن هذا عمل إلهى لايظهر إلا يومَ تشهدُ عليهم ألسنتُهم وأيديهم وأرجلُهم بما كانوا يعملون

— المحامية : هـذا تعبير أكبر من قدرة قائله ومن منزلته ووظيفته ، هذا تعبير جسور . يا حضرة النائب ؛ من الذى لا يحمل شهوداً فى لسانه ويديه ورجليه ؛ بل ألف شاهد على ليلة واحدة . . . يجب أن يكون مفهوماً بيننا يا حضرة النائب أن النون والباء فى لفظة ( نائب ) غير النون والباء فى لفظة ( نبى )

— النائب : يا حضرات المستشارين . لا أرى مما يُحرجنى فى الاتهام أن أصرح لكم أن مما حيّرنى فى هذه الجريمة أنْ ليس فيها من أوصاف الجرائم إلا ثلم الكرامة . فلا قذف ولا سب ولا هتك عرض ولا فجور ، ولا أصغر من ذلك ، ولا كأس خمر للراقصة . . .

— المحامية : لا أرى أمام حضرة النائب كأس ماء ، وسيجف حلقُه فى هذه القضية فلعل المحكمة تأمر لى بكأس ... (ضحك)

— النائب : يا حضرات المستشارين . يمشق راقصة ؛ اسم فاعل من رقص يرقص ؛ امرأة لا تلبس ثياباً بل عُرياً فى شكل ثياب . . . امرأة لا كالنساء ؛ كذبها هو صدق من شفتيها . لماذا ؟ لأنهما حراوان رقيقتان عذبتان محبوبتان مطلوبتان . . .

المحامية : تضحك . . .

— النائب بعد أن تتمتع : امرأة لا كالنساء ، جعلتها الحرفة امرأة فى العمل ، ورجلاً فى الكسب . . .

— المحامية : ولكنك لا تدرى تحت أى رجل سقطت[1] المسكينة . وقد يكون فى الرذائل رذائل كبعض أصحاب الألقاب ؛ ذات عظمة . . .

— النائب : يحب راقصة ، أى يضعها فى عقله الباطن ويشتهيها . نعم يشتهيها . فى عقله الباطن ، وبتعبير اللغة ، من واعيته — تخرج الجريمة أو على الأقل فكرة الجريمة

والصيت الأدبى يا حضرات المستشارين ؟ هل من كرامة لمن يعشق راقصة ؟ لا بل هل من كرامة فى الحب ؟ ألم يقولوا إن كرامة الرجل العاشق تكون تحت قدمى المرأة المعشوقة كالمسحة الخشنة تمسح فيها نعالها

الحب ؟ ما هو الحب ؟ إنه ليس فكرة ، بل هو شيطان يتلبس لجسم العاشق ليعمل أعماله بأداة حية ، وهذا التركيب الحيوانى للانسان هو الذى يهيء من الحب مداخل ومخارج للشياطين فى جسمه . وهل رضى صاحب القلب المسكين بجناية قلبه عليه ، وعظيم ما انتهك من أخلاقه السامية ، هل رضى بعشقه راقصة ؟ إنه لم يرض الرضى الصحيح ، أو رضى بقدر ما . فعلى كليهما يقوم فى نفسه مانع والمانع من الرضى هو الموجب للعقوبة

— المحامية : ولكن قدراً من الرضى ينزل بالجناية فيردها الى جنحة كما فى القانون الانجليزى . وقد قرر الشراح أنه مادام الرضى غير مستلب بكله ، فالجريمة غير واقعة بكلها

— النائب : جنحة كل قلب هى جناية من هـذا القلب بخصوصه ، على طريقة : «حسنات الأبرار سيئات المقربين» . والعبرة هنا بالواقع لا بالصفة القانونية . وقد قرر الشراح أن الواقع قد يكون أحياناً سبباً فى تشديد العقوبة ، فلا بد من تشديد العقوبة فى هـذه القضية . لا أطلب الحكم بالمادة ٢٣٠ عقوبات بل بالمواد من ٢٣٠ إلى ٢٤١ ضربة واحدة ...

— المحامية : قد نسيت أن هـذا قلب وعقوبته عقوبة لصاحبه البرىء

— النائب : إذن أطلب عقابه بحرمانه الجمال ؛ وهذا أشق عليه من العقاب باثنتى عشرة مادة وبعشرين وثلاثين

الرئيس : وما هى الطريقة لتنفيذ الحكم بهذا الحرمان ؟

النائب : تأمر المحكمة بالمراقص كلها فتغلق ، وبالمسارح كلها فتقفل ، وبالسما فتبطل إلا ما لا جمال فيه منها ولا غزل ولا حب ، ويحرم السفور على النساء إلا العجائز والدميات ، ويمنع نشر صور الجمال فى الصحف والكتب ، و . . .

المحامية : قل فى كلمة واحدة : يجب إصلاح العالم كله لأصلاح القلب الانسانى

* * *

وجلس النائب ، فالتفت الرئيس إلى المحامية وقال لها :

وأما هو ؟

( لها بقية — طنطا ) محمد عبد الله عنان

(١) هذه الكلمة لفكتور هيجو